مغازل الشتاء

بقلم.. مال الشام الحداد / سوريا

دودتي.. أهذه أنتِ؟

أين أنا؟ وما هذا الشيء الملتصق بجسدي؟

ما الذي فعلته دودتي بي؟

ما الذي فعلته لها حتى استحققت هذا العقاب؟

مرت الأيام ونحن معًا، أن تفارقني فكرة بدت شبه مستحيلة.

كيف لي أن ابتعد عن صديقتي الأولى وقد بادلتني بالحب الذي لا يَحظى به أي بشري في هذه الحياة؟

تقدمت نحوي من بين أوراق شجرتها وقالت:

"هل لي في أن..."

احمرت وجنتاها خجلًا، ابتسمتُ لها وحثثتها على الكلام

"اطلبي ما تريدين"

شقت وجنتيها ابتسامةٌ بسيطة وتابعت:

"جاء الشتاء والمكان بارد، هل...."

عادت لصمتها لأعود وأحثها على الكلام، استرسلت بخجل: هل يمكنني أن اسكن في معدتكِ إلى أن ينتهي الشتاء فقط؟

ضحكتُ ساخرة، كل هذا الخجل من أجل طلب بسيط؟

"بالطبع تستطيعين"

أجبتها بسرور لأشعر بها تخترق جلدي وتمشي في دمي إلى أن استقرت في معدتي، ها قد أصبحت جزءًا لا يتجزأ من كياني.

همستُ مرحبة:

"أهلًا بك"

جاء الشتاء وما يحمله من زمهرير قارس.

لحسن الحظ أن دودتي فكرت في الأمر مسبقًا وإلا لكانت الأن ميتة

هي معي ولن تبتعد عني وهذا يريحني فهي تفهمني أكثر من فتيات الحي الخرقاوات، أولئك المتحذلقات لا يصدقن بأنني أتكلم مع دودة تسكن داخل معدتي، لست بحاجة إليهن هنّ لا يردنني وأنا كذلك... دودتي تكفيني

استلقيت على السرير محاولة الاسترخاء، سألتني بخجل مجددًا.

"ملاك، هل لي بطلب من فضلك؟"

"-صديقتي أطلبي ما تريدين دون تردد أو دعيني أقول خذي ما تريدين دون طلب"

أجبتها بثقة لتجيب بدهشة:

"أجل حقا"

"أنا أريد فقط بضع شعيرات من شعرك لأصنع لنفسي وشاح يدفئني"

همهمت أفكر، هو غالي علي كثيرًا ولكن لا شيء أغلى من دودتي، ثم هي ستأخذ بضع شعيرات فقط.

ابتسمت وأومأت بالإيجاب.

مرت الأيام على طلبها الأخير وشيءٌ غريبٌ أصبح يحدث لي.

أرى خصل شعري تسقط في الحمام أو عالقة على الفرشاة خصل شعري في كل مكان إلا على رأسي!

أهذا بسبب دودتي يا ترى؟

وقفت أمام المرآة لأغسل وجهي ويا للهول ما رأيت، تراجعت خطوتين للوراء بصدمة، أهذه أنا؟ أين شعري هذا مستحيل.. أنا صلعاء!!

تسارعت العبرات بالسباق نحو مقلتي وركضت باتجاه أمي أشكو لها:

" أمي !! انظري إليَّ أنا قبيحة"

نظرت لرأسي وهمست بضعف:

"لا أنتِ لستِ كذلك انظري جيدًا"

قربت من وجهي خصلة شعر يتيمة توسطت مؤخرة رأسي، نظرت لتلك الشعيرات البنية بحسرة، أين ذهب باقي شعري؟

عاودت أمي الكلام بصوت أكثر ضعفًا ووهنًا:

"حبيبتي لا تحزني هيا سأمشطهم لك"

مشطت لي خصلة شعري وربطته بربطة وردية

ثم ابتسمت بحب:

"تبدين جميلة"

ولكن ما الأمر؟ ألا تستطيع أمي أن ترى أني صلعاء؟

ربما هي تواسيني فقط!

سألت نفسي:

"هل أمي تحبني أكثر أم دودتي؟"

أجابتني دودتي بصوت جاء من داخل معدتي وقالت:

"لا أحد يحبك بحجم حبي لك فأنا سأبقى معك حتى الموت"

حقًا! أعلم أنه من يقول لشخص أنه سيبقى معه للموت يقصد أنه يحبه بجنون، ضحكت بفرح فما بين يدي كنزٌ لا يقدر بثمن ألا وهو الحبّ!

ولكن....

هل الحياة كأفلام ديزني؟

حياتنا ليست كالجميلة النائمة أو فلة والأقزام!

لماذا تكون نهايات قصصنا غير واضحة على عكس النهايات الغجرية لقصص الأطفال؟

للآسف فرحتي لم تتم، عينا أمي دائما تلمعان... هي تبكي ولا تريدني أن أراها ولكنني... أراها.

كانت جالسة بمفردها حاملة في يدها صورة قديمة لي وعبراتها تحرق وجنتيها الزهريتين كما لو أنها أضاعت شيئًا غاليًا عليها

اقتربتُ منها بهدوء ووضعت يدي على كتفها الضعيف وسألتها:

"لماذا تبكين؟"

أدارت وجهها إليَّ بسرعة، صاحت متفاجئة بينما أخفت الصورة في جيب بنطالها:

" ها!، أنتِ هنا لم أكن أعر... أقصد... على العموم أنا لا أبكي هناك شيء دخل لعيني"

مسحت عبراتها ثم أمسكت بالفرشاة وأردفت مع ابتسامة بسيطة:

"اقتربي لأمشط لك شعرك فاليوم سآخذك لمكان جميل"

"إلى أين؟"

"عندما نصل ستعرفين"

مشطت لي شعيراتي وغطت رأسي بقبعة وردية مزركشة بأزهار بيضاء

أمسكت بيدي وذهبنا معًا.

دخلتُ إلى المكان... غرفةٌ مظلمةٌ كمغارة الغول

لا أحد فيها سوى أنا وأمي ودودتي.

ومن بين الظلام السوداء تقدم شبحٌ أبيض... أهذا طبيب؟ ركضت نحو حضن أمي وتوسلت برعشة:

"أ .أرجوكـ.. لـ لنذهب إلى البيت"

إلا أنه أسرع مني.... غدرني بإبرة نهشت جسدي بأكمله وأفقدتني الوعي وصوت صراخ جاء من معدتي... دودتي !! إنها تتألم وتتآكل وتتقلص.. ثم اسودّ كلّ شيء

"أمي أين أنتِ؟ أين أنا؟ لا أرى شيئًا"

همست لي دودتي بألم:

"نامي"

خرجتُ من الغرفة والتي تسمى (العلاج الكيماوي) وعدت مع أمي للمنزل أبكي

مسحت عبراتي وقلت بصرامة:

" في المرة المقبلة لن أذهب إلى ذلك المكان أبدًا"

أخذت نفسًا عميقًا لأمسك ما تبقى من طاقتي وهمست:

"أمي أنا... انا أريد أن أنام... ولن أستيقـ.."

لـم أسـتطع إكمـال جملتـي إثـر ضـمة خانقـة بـاغتتني مـن ذراعـي أمـي النحيلتين

صاحت بغضب مشرب بحزن عميق:

"اصمتي...اصـمتي.. لا تقولي هذا فأنتِ ستستيقظين وسـأعود لأمشط شعرك المخملي من جديد"

انهمـرت بالبكـاء رفعت حـاجبي مسـتغربة، حـائرة، أهـي تبكـي بسـببي، ربت على كتفها وتلعثمت مبررة:

" أمي ما بالكِ؟ أنا أقصد هل أنتِ بخير؟ لا تقلقي أنا فقط سأنام لساعات طويلـة ولـن استيقظ حتـى وإن جعلتِ إخـوتي يزعجـونني، سـأنام ولكـن سأستيقظ غدًا... أعدك"

ابتعدت عني وأحكمت إمساكها لوجنتي الشاحبتين ثم سألتني بطفولية:

"أتعديني؟"

"أجل"

استلقيت على سريري أفكر، صـورتي فـي يدها أولا والآن بكت من لا شيء أهو شيءٌ في جفنها حقًا أم أنا هي السبب؟

كيف أكون سبب تعاسة شخص أحبه؟ كيف أذيها وأنا لا أشعر بذلك؟

وضعت يدي على معدتي لأقاوم الألم.

ترى هل دودتي تشعر بالألم الذي أشعر به الآن؟

شيءٌ غريبٌ يحدث كلما كبرت دودتي أكثر زاد ألمي أكثر وأكثر.

تجاهلت آلمي وفكرت بأمي.

أمي تبكي، هي تبكي وإن قالت لي عكس ذلك.

قالت دودتي ساخرة:

"أنت ساذجة يا فتاة فأمك تبكي لوجودي"

قهقهت مستهزئة فهذا مستحيل أمي تحبني وتحب من يحبني همتْ لتجيبني ولكن قاطعها صوت أمي:

"ملاك حبيبتي صنعتُ لك الحلوى"

قفزتُ للمطبخ لأراها، رغم وجهها الشاحب وعينيها الحمراوين ابتسمت لي ووضعت أمامي صحن مليء بقطع الحلوى الشهية، قلت بخجل:

"شكرا"

أومأت إيجابًا دون أن تنطق ببنت شفة وشرعت بغسيل الأطباق.

ما إن دخلت رائحة الحلوى لأنفي حتى نسيت تعبي همست لي دودتي:

"لا تأكلي"

تجاهلتها، مستحيل إنها الحلوى المفضلة لديّ.

أمسكت بقطعة وتناولتها بشراهة، واحدة تلو الأخرى إلى أن سمعتها تصرخ:

"اخرجوه... لا أريده"

صوتها كالفحيح، بدت غاضبة ولا تريدني أن أكسر كلامها.

أسرعت بالذهاب للحمام وتقيأتُ عجينة سكر ممزوجة بدم أحمر

هل هذا دمي؟

رفعت رأسي عن المرحاض بصدمة لألمحها تختلس النظر إليَّ وقدميها ترتجفان ضعفًا.

غمرت وجهها براحة كفيها وركضت مبتعدة عني، ناديتها بوهن:

"أمي"

ولكنها لم تجب!

وقفت أمام المرآة، لأغسل وجهي.

ملامح وجهي لم تعد كما كانت عليه، أصبحت شاحبة ومختلفة، زحت القبعة عن رأسي ببطء وتأملت نفسي.

لا شعر لدي، أتقّيأ دماء، جسدي ضعيف، وجهي شاحب ماذا يحدث معي بحق الجحيم؟

عدت لغرفتي مرهقة، استلقيت على سريري لأسمعها تتابع حديثنا القديم:

" هي تغار لأنني قريبة منكِ وسأخطفك منها"

تنهدتُ بتعب وسألتها:

"إلى أين؟"

ابتسمت بخبث وقالت:

"إلى مكان جميل"

"وكيف عرفتِ ذلك؟"

" لأنني أعرف ذلك المكان جيدًا... فلقد جئت منه"

شهقت بتعب متخبط بلمسة سرور:

" حقًا!! هذا جميل... أنا موافقة طبعًا"

موافقة؟ أجل موافقة فعندما توافق على شيء يصبح كلُّ شيء جميلًا، أليس كذلك؟

ربما ولكن ليس معي.

آخر مكان ذهبت إليه كان منذ أسابيع، حجرة ذلك الغول المقزز منذ ذلك اليوم وأنا طريحة الفراش لا حول لي ولا قوة.

لا أحد يواسيني بوحدتي لا أحد بجانبي سواها... دودتي والتي لم تعد كما كانت عليه.

وضعت يدي على معدتي من شدة الألم وهمست مستنجدة:

"أرجوك توقفي"

ولكن لا حياة لمن تنادي، تجاهلتني واستمرت في الحفر داخل أحشائي دون مبالة للألم الذي تسببه لي.

تحفر وتنسج شيئًا ما والألم لا يُحتمل.

جحظت عيناي وصرخت بحرقة:

"توقفي"

هدأ كل شيء بداخلي وأخيرًا، توقفت عن الحراك.

عشت برهة واحدة من الراحة والسكون قبل أن تمزقها صوت قهقهتها والتي تحدثت بلهجة أمر أكثر مما تعودت عليه:

"اصمتي يا فتاة"

ماذا قالت للتو؟ يا فتاة! ألم أكن صديقتها؟

"أنتِ تعيشين في معدتي وأنا أرفض استمرارك بالشيء الذي تفعلينه الآن ثم كيف تفعلينه دون الأخذ بالإذن حتى؟"

نهشت في معدتي أكثر، تكورت حول نفسي وقد دمعت عيناي بعبرات مالحة أحرقت وجنتي.

"أستأذن منك؟ ويحك ما الذي تقولينه يا فتاة؟"

هل هذه حقًا دودتي أم أنها دودة أخرى احتلتني وقتلت صديقتي؟

أجابت بسخرية:

"حمقاء أيعقل أنك لم تفهمي شيئًا بعد؟ أيعقل أنك لم تفهمي أنني السبب في كل ما يحدث معك؟"

توقفت لتأخذ نفسًا تتبعه صوت ضحكة خافتة واسترسلت بخبث:

"أنا السبب في إسقاط شعرك، وفي تقيئك الدماء، في تعبك، وفي شحوب وجهك، في ألم معدتك، وكل شيء، أنا السبب"

وغدة، تعترف بذنبها دون ندم، تعترف ومع كل اعتراف تغرس ذيلها الحاد بداخلي أكثر لتزيد ألمي أكثر فأكثر.

مسحتُ عبراتي بسرعة وصرخت بحزم:

اخرجي، اخرجي من داخلي وحالًا"

حل الصمت من جديد ها هي برهة سكون أخرى اقتحمتها صوت قهقهتها الساخرة..

"وهل حقًا سأخرج إن طلبتِ مني ذلك؟"

"ويحكِ كنت تحمرين خجلًا مع كل طلب تطلبينه مني ما الذي غيرك الآن؟"

إلا أنها لم تجب، تكورت حول نفسي وقد دمعت عيناي وأنا أئن بصمت.

ها قد بدأ الثلج بالهطول، ابتسمت دودتي بشر فقد اجتمع الحلفاء، هي تؤلم من الداخل والثلج يسترها من الخارج ويدخل بردًا ينخر العظام دون رحمة

رياحٌ قويةٌ في الخارج أحدثت صوتًا مخيفًا بارتطامها بزجاج النافذة

همستُ راجية:

"أرجوك كفى"

أجابت طلبي بتكلف وكأنها هي صاحبة هذا الجسم البالي:

"لا يمكنني التوقف فأنا في منتصف الطريق"

"منتصف الطريق؟ إلى أين ستذهب بي؟"

"إلى الجحيم"

الجحيم؟ ولكن ماذا سيحدث لي هناك؟ ماذا سيحدث للأشخاص الذين يحبونني؟ لأمي؟

أين أمي؟ لم أعد أراها، عبراتها أصبحت أقرب إليها مني.

يبدو أنني سأغادر دون أن أودع أحد.

ضحكت بشدة لدرجة أنني أحسست بدموع ضحكها يختلط مع دمي:

"من يهتم لوداعك؟ أنت بشعة ضعيفة خرقاء وميتة"

أأنا بشعة؟ ضعيفة؟ خرقاء؟ ميتة؟

هجمت الرياح على غرفتي وفتحت النوافذ على مصراعيها سامحة للزمهرير بالدخول على سجادة حمراء مطرزة بخيوط من ذهب

ها قد جاء الدعم لها، احتل البرد غرفتي وهي بداخلي مازالت تحفر وتنسج وأنا مكورة على نفسي.

هل سأموت؟

ألم، برد، وحدة، وما زلتُ أقاوم!

وما زلتُ أسأل نفسي هل سأموت؟

أصبحت رؤيتي مشوشة شيء ما يلتف حولي غيمة سوداء تستعمرني غطت كل شيء واختفى كل شيء.

فتحت عيني بتعب أين أنا وماذا أفعل هنا؟

رائحة مشفى! صوت بكاء! ولكنني لا أرى شيئًا من كل ذلك.

لم أستطع تحريك جسدي، أنا لست في السرير.

بعثرت أنظاري حول المكان هناك فتيات كثيرات غيري.

تقلصت معدتي وانقلبت فشعرت بألم لا يحتمل، أنزلت عيناي للأسفل، لأراها مفتوحة ويخرج منها مغازل، خيوطٌ تحاك حولي، منبثقة مني لتسجنني.

ارتجف قلبي إذًا هذا ما كانت دودتي تفعله داخلي.

تحفر في معدتي لتخرج مغزلها المصنوع من شعري.

إنها تجعلني أقتل نفسي!

حدقت بفتاة خرجت خيوطها من رأسها سألتها بوهن:

"أهي دودة؟"

ابتسمت بتعب وأجابت:

"ستغدين فراشة جميلة بعد أن يلتف جسدك بالكفن الحريري"

أقشعر بدني ووقف شعر جسمي سأقتل نفسي بمغزل صُنِعَ مني في شتاء حمل مع رياحه البرد والخيانة والخوف!

سأموت وسأراقب نهايتي بصمت.